الموقع الرسمي لفضيلة الشيخ

محمد سيد حاج

رحمه الله

خطبة جمعة

وقفات مع الفيضانات والسيول

للشيخ محمد سيد حاج رحمه الله

نص مفرَّغ من التسجيل وحُرِّر للقراءة: صُحِّحت فيه الهمزات والترقيم والآيات، وحُذفت مواضع لم يتبيّن فيها الكلام. المرجع هو التسجيل الصوتي.

الحمد لله الذي كان بعباده خبيرًا بصيرًا، تبارك الذي جعل في السماء بروجًا وجعل فيها سراجًا وقمرًا منيرًا، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكورًا، تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، الذي له ملك السماوات والأرض، ولم يتخذ ولدًا، ولم يكن له شريك في الملك، وخلق كل شيء فقدّره تقديرًا. أحمده سبحانه حمد الشاكرين الذاكرين، حمدًا يليق بجلاله وبعظيم سلطانه، ووافر وجزيل إحسانه، لا أحصي ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه. وأصلي وأسلم على عبد الله المصطفى، ورسول الله المجتبى، ونبي الله المرتضى، وعلى آله وأصحابه.

عباد الله، لله في أيام دهره تصريف وتقدير، وملك وتدبير، حكمته بالغة وقضاؤه غالب ومشيئته نافذة، وهو القاهر فوق عباده، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وإن البشر ليعجزون عن إدراك كنه كل شيء، وعن الوقوف على تفاصيل الوقائع والأحداث، وعن تفسير كثير من الظواهر: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

والمؤمن من خلال منطلقاته الإيمانية وقواعده الاعتقادية يعتقد أنه لا حركة ولا سكون في هذا الكون، من الذرة إلى المجرة، إلا بأمره وتدبيره وتصريفه ومشيئته. والمؤمنون يعلمون أن أقدار الله لهم خير، وإن كان في ظاهرها شرًّا: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وهذا المعتقد السليم والتصور الصحيح للحياة وما حولها أن يعلم أن الله هو الذي أضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وأسعد وأشقى، ومنع وأعطى، وأن بيده كل شيء وعنده تصريف كل شيء، يسأله من في السماوات والأرض، كل يوم هو في شأن، ويجري الأقدار وفق حكمته البالغة القاهرة النافذة سبحانه وتعالى. ينبغي أن نعتقد هذه العقيدة التي نفسر بها كل شيء من حولنا: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فنكون خاضعين لأقدار الله، مستسلمين لقضاء الله، حامدين لنعم الله عز وجل في السراء وفي الضراء.

وهذه مقدمة ضرورية لنقف ونحن على فصل من الفصول، هو فصل الخريف، الذي انتظره الناس بفارغ الصبر، تحيا به الأرض، ومع الأرض تحيا النفوس بالتفاؤل وبالأمل: ﴿لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ۝ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾. جاءنا فصل الخريف ببشاراته وتفاؤله وأمله الذي يملأ النفوس، ولكن معه بعض الكوارث وبعض الأزمات وبعض الوقائع والأحداث التي فعلًا تهز النفوس. وحتى لا تضيع الحقائق الإيمانية في غمرة الفيضانات والكوارث وخروج الناس وما يتبع ذلك من ألم نحسه جميعًا ونحسه لإخواننا، ينبغي أن نقف مع بعض الحقائق.

الحقيقة الأولى أن الماء مهم للحياة. قال جل وعلا: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ...﴾، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾. إن هذا الماء الطيب العذب الذي تحيا به النفوس نحتاجه جميعًا، تحيا به الأرواح، والماء داخل في كل شيء. ولكن الماء السهل الطيب الجميل الذي تحيا به الحياة بأمر الله وقدرته يصير ماردًا عاتيًا فيدمر كل شيء. هل كنت تعتقد أن الماء يمكن أن يحدث كل هذا الخراب؟ الماء الذي إذا عدمه الإنسان مات عطشًا، الماء الذي هو كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، هل كنت تتخيل أن هذا الماء يمكن أن يتحول إلى كاسر وإلى وحش يكسر كل شيء؟ إنها قدرة الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

وإنّا لنسأل الله جل وعلا أن يكون ما أصاب إخواننا من باب البلاء والابتلاء، وليس من باب الغضب والانتقام، فإن الله قد انتقم من أقوام بالماء، أهلك قوم نوح بالطوفان: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ

حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾. أهلك الله أقوامًا بالماء، قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾.

أهلك الله النمرود ببعوضة، وكسر سد مأرب بفأرة، وأهلك أبرهة بطير أبابيل، قدرته قاهرة. لو أراد الله أن يهلك العباد لأهلكهم بأقل شيء، لأهلكهم بالماء، الماء البسيط الذي نحتاجه ونتعلق به. نرى الماء كأن ليس فيه قوة، ولكني رأيت بأم عيني البيوت تتهاوى، والعمارات تتكسر وتذوب كما يذوب البسكويت في الشاي، تذوب كما يذوب الخبز والعجين في الماء. رأيت قضيب السكة الحديد يلتوي، ورأيت الماء يأتي بسيل جارف يحمل قطارًا كبيرًا في سكة حديد، يأخذه ويجره جرًّا. إنه السيل، إنها السيول بعض جند الله تعالى.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾. بعض القرى جاءها السيل ليلًا في السحر وهم نيام. يا نائمًا بالليل مسرورًا بأوله، إن الحوادث قد يطرقن أسحارًا. ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾. سبحان الله، والله ما أعظم الله، جل الله الذي يجري الأمور.

ولكنني أظن وأعتقد أن الذي أصاب إخواننا الفضلاء من المؤمنين من المسلمين في بلادنا إن شاء الله هو من باب الحسنات، ومن باب تكفير السيئات، ومن باب الابتلاءات، ومن باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيرًا يصب منه». أصاب الله منهم في ديارهم وفي أموالهم، ولعل لطف الله أن سلّم أرواحهم، وهذا من لطف الله الذي ينبغي أن ينظروا إليه، فإن الله سلّم أرواحهم، وليس هنا نقص كبير في الأرواح، وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده.

الأمر الثالث: ينبغي أن نعلم أن إنزال الغيث عقيدةً إنما هو لله وحده، ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾. سبحان الله، تعبيرات القرآن عجيبة: ينشئ السحاب الذي نراه الآن ونفرح به لما نراه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، بإحساسه العالي وبيقينه الكامل وبعبوديته المؤدبة مع ربه، إذا رأى الريح ورأى السحاب خاف، دخل وخرج، دخل وخرج، ويتغير وجهه. تقول عائشة: الناس يفرحون بالسحاب! قال: «يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟» وتلا قوله تعالى من سورة الأحقاف: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا...﴾.

انظر إلى هذا القرآن العظيم الذي يتابع الأحداث ويحيط بالوقائع ويفسر الظواهر، ولكننا نقرأ الظواهر فنقول: الأرصاد والنشرة الجوية. الأمر خارج إطار البشر، ولكن علينا بالتدبير نعم، وعلينا بالاحتياطات نعم، وعلينا أن نتابع. وأعتقد أن المرحلة القادمة ونحن في بدايات الخريف أننا سوف نرى الطائرات المحلقة فوق الجو لتتابع حتى يأخذ الناس حذرهم، وهذا من أقل واجبات الدولة تجاه مواطنيها لحماية الناس ولحماية ممتلكات الناس.

يقول جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

وقال جل وعلا: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾، أي يسوقه. ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ...﴾. وإن الذين ركبوا الطائرات ورأوا السحابة من فوق، من فوق الجو، يرون أنها جبال بين السماء والأرض تسير. من الذي أمسكها؟ ومن الذي أنزلها قطرة قطرة، ودفقًا دفقًا، حتى يستفيد الناس؟ فإذا حصل بعض الشيء فإنما هو لتقدير أراد الله، للذين أصيبوا خيرًا، أراد أن يرفع من درجاتهم: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

أسأل الله جل وعلا أن يوفقنا لكثير من التأمل ولكثير من التفكر، وأن يزيدنا إيمانًا، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضى، وأن يأخذ بنواصينا إلى البر والتقوى، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وصلّ اللهم وسلم وبارك وأنعم على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه. إن في هذا الخريف، ونحن في أوائله، سنرى الكثير من الظواهر، نسمع رعدًا ونرى برقًا، وعندها نقول: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾. حتى هذا الرعد، لا تعتقد أنه مجرد صدفة، أنت مؤمن، إنما هو يسبح الله بهذه الكيفية التي يسبح الله بها. عندها علينا أن نعلم أن هذه عظمة الله في الكون.

ثم لا بد من رسالة إلى الذين أصيبوا بالسيول والفيضانات، أقول لهم: هذه هي الدنيا، تضحك وتبكي، هذه هي الدنيا، سراء وضراء، شدة ورخاء. ولكن أن تصبروا، وأن تعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فعليكم بالصبر الجميل، وعليكم باليقين أن هذا لخير لكم إن شاء الله. نسأل الله ألا يجعل هذا انتقامًا، وألا يجعله غضبًا. وأيها العباد، نحن في بدايات الخريف، علينا أن نتضرع إلى الله، علينا أن نلجأ إلى الله.

والإنسان لا يصبر على حال. الناس كان يقول لك: السخانة قتلتنا، السخانة قتلتنا. جاء الخريف قالوا: الحشرات، البعوضة، السيول، الفيضانات. يا ناس، يسوّي لكم شنو؟ الشتا يجي: النزلة قتلتنا. الصيف يجي يقول لك: الحر، الحر، لا حول ولا قوة إلا بالله. وخلق الإنسان ضعيفًا، أصلًا ما بنحمل حاجة. حتى ولو كان فيه بعض الكوارث والأزمات لحكمة يعلمها الله، أيضًا هي الرحمة، رحمة ما في شك.

فرسالتي إلى الذين أصيبوا أن يعلموا أن الدنيا أحقر مما نتصور، وأن التغيير قريب. ولكني رأيت الابتسامة لا تفارق شفاه كثير منهم. فهنيئًا لهم بهذا الصبر، وإنها والله رفعة، وإنها والله خير لهم لو أنهم صبروا. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ۝ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ...﴾.

أرأيتم الذي تم في سلطنة عمان؟ يا أخي، موية وسيول وريح، العربات مقلّبة، عربية فوق عربية. يا إخوانا، ربنا ما بيتحارب. ولذلك علينا جميعًا أن نحدث لله توبة.

ورسالتي إلى الذين لم يصابوا، إلى المنظمات والجمعيات والحكومة وسائر الشعب، رسالتي إليهم: كان يمكن أن تكون مكانهم، ولستُ أكرم على الله منهم، ما في زول فينا أحسن منهم. شوف ناس كتار يكونوا أحسن مننا، لكن حكمة الله اقتضت ابتلاهم وسلمكم، ابتلاهم بحكمة، وسلمكم بحكمة، فعليكم أن تغيثوهم، وأن تمدوهم بالكساء والغذاء والدواء.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه شيء عجيب، لما أصيب في المدينة بعام الرمادة، سنة ثمانية عشر هجرية، بعد فترة قال لهم: تم البلاء أمده، وسينكشف بإذن الله. فأرسل إلى الأمصار: أغيثوا أهل المدينة ومن حولهم. وفيه مبدأ الإغاثة الإسلامية.

ولكن هذا لا يعني ألا نتقي. في ترس، اعمل ترس. بعد ما تعمل الترس ده السيل كسر تاني، إنت اللي عليك عملته، ده من ربنا، ما في كلام. ولكن على الناس أن يتحركوا بالإغاثة. لا بد من الإحساس بإخوانك، لا بد من مبدأ التعاون ومن مبدأ الإغاثة.

اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، سقيا رحمة لا سقيا عذاب، ولا هدم ولا بلاء ولا غرق يا رب العالمين. اللهم بارك لنا فيما أنزلت إلينا، واجعل ما أنزلت علينا من غيثك قوة لنا في طاعتك يا رب العالمين. اللهم لا تهلكنا وأنت غني عنا يا رب العالمين، اللهم لا تهلكنا وأنت غني عنا. اللهم عوّض إخواننا الذين أصيبوا في السيول والفيضانات، في الباكستان وفي عمان وفي كل مكان وفي السودان، اللهم عوضهم خيرًا يا رب العالمين، اللهم ثبّت أجورهم، وعوضهم خيرًا يا رب العالمين، واجعل ما أصابهم تكفيرًا لسيئاتهم وزيادة في حسناتهم ورفعة في درجاتهم يا رب العالمين، وصلّ اللهم وسلم وبارك وأنعم على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

للاستماع إلى المادة وتنزيلها

mohamedsayed.com/sounds/وقفات-مع-الفيضانات-والسيول/

تابع الحسابات الرسمية للشيخ

فيسبوك
MohammedSayedHaj

يوتيوب
@msayedhaj

تيليجرام
@msahaj

قناة واتساب
قناة الشيخ

إكس
@mohamedsayed_sd

الموقع الرسمي للشيخ محمد سيد حاج رحمه الله · mohamedsayed.com